شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦-٨٤٥هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

ابن الجزري

مكتب ابن الجزري للبحث العلمي والتفريغ الصوتي

الدَرْسِ (٩)

الحمد لله القوي العزيز، وكفىٰ بالله وليًّا وناصرًا وشهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله إقرارًا به وتوحيدًا، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين وداعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وعلىٰ آله وصحبه وَسَلَّمَ تسليمًا مزيدًا.

أما بعد:

فيا معاشر الفضلاء إن أعظم ما فرضة الله علىٰ الإنسان، وأشرف ما دعا إليه سيد ولدُ عدنان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلىٰ مصالح الإنسان، وأعظم ما اكتنزه الكانزون توحيد الألوهية، الذي خُلقنا من أجله، وبُعث الرسل عليهم السلام به، ومن جاء به أمنَ من الخلود في النيران، ومن حققه أمنَ من دخول النيران، ونحن نعقد هذا المجلس في فجر السبت في مسجد رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنشرح أول كتاب أفرد في توحيد الألوهية فيما علمنا، حيث نشرح كتاب تجريد التوحيد المفيد لتقي الدين أحمد بن علي بن المقريزي المصري الشافعي، المتوفىٰ سنة ثمانمائة وخمس وأربعين من هجرة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(المتن)

قال العلامة أحمد بن علي المقريزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كتابه: "تجريد التوحيد المفيد"، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَتَعَلَّقَتِ الْاِسْتِعَاذَةُ فِي أَوَائِلِ الْقُرْآنِ بَاسِمِهِ الْإِلَهَ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ وَحَدُّهُ، لِاِجْتِمَاعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ فِيه.

وَمُنَاجَاةُ الْعَبْدِ لِهَذَا الْإِلَهِ الْكَامِلِ، ذِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا، الْمَرْغُوبَ إِلَيْهِ؛ فِي أَنَّ يُعِيذُ عَبْدُهُ الَّذِي يُنَاجِيهِ بِكَلَامِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الْحَائِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ.

(الشرح)

ما زلنا معاشر الفضلاء مع دلالات لفظ الجلالة، اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على عظيم شرف توحيد الألوهية، فإن الله معناه: المألوه المعبود المحبوب، وشرف الاسم دليل على شرف معناه، فلفظ الجلالة له دلالات متعددة على عظيم شرف توحيد الألوهية، ومن ذلك: أنه شرع للمؤمن عند قراءة القرآن أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أو يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أو يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، كما قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل: ٩٨]، وهذا الأمر عند جماهير العلماء للاستحباب، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن مسنونة مستحبة، وذهب بعض أهل العلم ومنهم الثوري وعطاء والإمام أحمد في رواية رحم الله الجميع إلى أن الاستعاذة بالله من الشيطان عند القراءة واجبة، والراجح ما عليه جماهير أهل العلم أن الاستعاذة قبل القراءة مستحبة، ومتى تكون هذه الاستعاذة؟ جماهير العلماء على أنها تكون عند إرادة القرآن، فمعنى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨]، يعني إذا أردت أن تقرأ القرآن، وهذا أسلوب عربي فصيح.

وذهب قليل من العلماء إلى أن الاستعاذة تكون بعد القراءة، لأن الله قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ [النحل: ٩٨]، ولذلك المالكية عندهم يجوز للإنسان أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في صلاة النافلة، يجوز للإنسان من غير كراهة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم من غير كراهة في صلاة النافلة، لكن متى يقوله؟ قولان: قول يقولها قبل أن يقرأ الفاتحة، وقول يقولها بعد أن يفرغ من قراءة الفاتحة، مبني على هذا الخلاف الذي ذكرناه، والأوجه والأظهر والأنسب هو ما عليه جماهير أهل العلم، أن الاستعاذة تكون قبل الشروع في القراءة عند إرادة القراءة، ومناسبة ذلك: أن العبد المؤمن يستجير بالله، ويلجأ إلى الله، ويعتصم بالله من الشيطان الرجيم أن يصرفه عن قراءة القرآن، فكم من شخص لا يكاد يقرأ القرآن، ويستعيذ بالله ويستجير بالله ويعتصم بالله من أن يزهده الشيطان في قراءة القرآن، ومن أن يصرفه الشيطان عن تدبر القرآن، ومن أن يشغله الشيطان بالوسواس عن تدبر

القرآن، ومن أن يخبث الشيطان نيته في قراءة القرآن، ومن أن يحرمه الشيطان ويمنعه من الانتفاع بالقرآن، كل هذا في هذه الاستعاذة.

عندما تقول يا عبد الله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنك تقول: استجير بالله الذي لا إله إلا هو من الشيطان أن يصرفني عن قراءة ا لقرآن، أن يزهدني عن قراءة القرآن، أن يصرفني عن تدبر القرآن، أن يشغلني بالوساوس عن تدبر القرآن، أن يجعل نيتي خفيفة في قراءة القرآن، ألا يحرمني من الانتفاع بما في القرآن، وسر تعلق الاستعاذة باسم الله، فإنها في جميع صيغها فيها الاستعاذة بالله، أن الاستعاذة عبادة، وأن الله هو المألوه المعبود المحبوب ذو الصفات الكاملة، فكانت الاستعاذة التي هي عبادة بالمعبود، الذي لا يعبد سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا فيه دلالة اسم الله على عظم شأن توحيد الألوهية.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ اِسْتَحَبَّ التَّعْلِيقُ بَاسِمُ الْإِلَهِ فِي جَمِيعِ الْمُوَاطِنِ الَّذِي يُقَالُ فِيهَا: " أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ".

(الشرح)

نعم اقترنت الاستعاذة بجميع صيغها باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن غضب: «لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» متفق عليه، وفي الحديث: «فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار» متفق عليه، وفي دعاء دخول الخلاء: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث» رواه مسلم، وفي الحديث: «قل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» رواه مسلم، «أعوذ بكلمات الله التامات» رواه البخاري، فحيث ما وجدت الاستعاذة كانت مقرونة باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك لما قدمناه أن الاستعاذة عبادة، وأن الله هو المألوه المعبود المحبوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فدل ذلك على عظم شأن توحيد الألوهية، على عظم شأن الا يعبد الإنسان إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

لِأَنَّ اِسْمَ اللهِ- تَعَالَىٰ- هُوَ الْغَايَةُ لِلْأَسْمَاءِ، وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ اِسْمٍ بَعْدَهُ لَا يَتَعَرَّفُ إِلَّا بِهِ، فَتَقُولُ: اللهُ هُوَ السُّلَّامُ، الْمُؤْمِنَ، الْمُهَيْمِنَ، فَالْجَلَالَةَ تَعْرُفُ غَيْرَهَا، وَغَيْرَهَا لَا يُرْفَهَا.

(الشرح)

من دلالات اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على عظيم شرف توحيد الألوهية: أن الله أشرف أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأكملها، وكل الصفات في أسماء الله مضمنة في اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ فيها توحيد الألوهية، وفيها توحيد الربوبية، وفيها توحيد الأسماء والصفات، وأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ في مقام التعريف، تتبع اسم الله، وتعرف به، ولا يُعرف بها نقلًا وعملًا، عمل المسلمين على هذا، فيقال: الله هو السلام، الله هو العزيز، الله هو البر، الله هو الرحيم، ويقال: من أسماء الله العزيز البر الرحيم القوي، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾[الحشر: ٢٢، ٢٣].

وألحظ يا عبد الله: الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[الحشر: ٢٢] في مقام التعريف بالله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾[الحشر: ٢٢]، ثم بين معنى هذا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[الحشر: ٢٢]، لا يستحق العبادة إلا هو، ثم ذكر الأسماء، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر الآية: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الحشر: ٢٣]، انظر المقصود التوحيد بدأ به في أول الآية وختم به في آخر الآية، فهنا في مقام التعريف بدأ بلفظ الجلالة باسم الله، وبين معناه، ثم ذكر في الأسماء، ثم نزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن شرك المشركين، فدل هذا على أن الأسماء تتبع اسم الله عَزَّ وَجَلَّ، أسماء الله الحسنى تتبع اسم الله، تتبع لفظ الجلالة؛ وذلك لعظيم شرف هذا الاسم، وهذا يدل على عظيم شرف توحيد الألوهية، فإن توحيد الألوهية متعلق بهذا الاسم باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا بِهِ تَعَالَىٰ فِي الرُّبُوبِيَّةِ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَ مَعَهُ خَالِقًا آخرَ، وَإِنْ لَمْ يَقُولُوا: إِنَّهُ إِلَهٌ مُكَافِئٌ لَهُ، وَهُم الْمُشْرِكُونَ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنَ الْقَدْرِيَّةِ.

وَرُبُوبِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَالَمِ الرُّبُوبِيَّةَ الْكَامِلَةَ الْمُطْلَقَةَ الشَّامِلَةَ تَبْطُلُ أَقْوَالُهُمْ، لِأَنَّهَا تَقْتَضِي رُبُوبِيَّتُهُ لِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الذَّوَاتُ وَالصِّفَّاتُ وَالْحَرَكَاتُ وَالْأَفْعَالُ.

(الشرح)

كأن معترضًا اعترض، فقال: قررتم ودللتم أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وإذا سُئلوا على أفعال الرب نسبوها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع أننا نجد في الواقع أن هناك من أشرك في الربوبية، كأن معترض اعترض بهذا الاعتراض، وهذا يقع ممن يجعلون التوحيد هو توحيد الربوبية، ويريدون أن يقرروا أن شرك المشركين الذي قاتلهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجله هو شرك الربوبية ليفروا من توحيد الألوهية، وأن دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيوردون على أهل السنة على أهل التوحيد هذا الإيراد، فيقولون: أنتم تقررون أن المشركين كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، فنقول لهم: نعم وندلل على ذلك بأدلة قطعية يقينية من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقولون معترضين علينا: إنا نجد في الواقع أن هناك من يشرك في الربوبية، فكان الجواب: أن هذا الشرك في الربوبية بالنسبة للناس منذ خلق الله آدم عليه السلام قليل نادر.

ولم يعهد أن المشركين نازعوا الرسل في الربوبية، وإنما نازعوا الرسل في الألوهية، إلا نادرًا، ومع كونه قليلًا نادرًا، هذا الأمر الأول: أنه قليل نادر بلا شك، ومع كونه قليلًا نادرًا فإن شرك المشركين في الربوبية لم يكن شرك تسوية، ومكافأة بين الله عَزَّ وَجَلَّ وغيره، فلم يكن المشركون في الربوبية يسوون غير الله بالله في ذلك، ما كانوا يقولون: إن المخلوق يخلق كما يخلق الله، لكن قد يضيفون بعض الخلق إلى المخلوق، حتى فيما أشركوا به من الربوبية لم يكونوا يسوون بين الله وغيره، فكانوا مثلًا كما قلنا: ينسبون بعض الخلق كما أنهم لم يشركوا في كل الربوبية، قد يشركون مثلًا في الخلق، ولكنهم لا يشركون في الرزق، ولا يشركون في التدبير ونحو هذا.

ومن جهة أخرى في الجواب: أن الشرك في الربوبية في غاية السقوط، في غاية السقوط الشرك في الربوبية، لأن كل عاقل يدرك شمول ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ وكمالها على الإطلاق، وأنه لا يمكن لمخلوق أن يساويها بكل المخلوقات، فالمخلوقات بأكملها عاجزة عن الربوبية، وكما قلنا: لم ينسب أحد كل الربوبية لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم ينسب أحد الربوبية كلها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا شذوذًا مكابرة حصل من فرعون؛ حيث نسب الربوبية إلى نفسه، وربوبية الله شاملة كاملة مطلقة لكل شيء، فكل شيء من المخلوقات فالله ربه، كل ذرة في الكون الله ربها، الله مدبرها، وكل حركة في الكون الله ربها، وكل سكون في الكون الله ربه، وكل فعل الله ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله رب كل شيء، إذاً نقول: إن الشرك الذي وقع في الربوبية نادر قليل بالنسبة للناس، ومع كونه نادرًا قليلًا لم يكن الشرك في الربوبية على وجه التسوية بين الله وغيره، ولم يشرك أحد في الربوبية شركًا مطلقًا؛ بحيث جعل الربوبية كلها لمخلوق.

بل كل إنسان يجعل معظم الربوبية، يعني كل إنسان ممن أشرك بالربوبية يجعل معظم الربوبية لله، ويشرك بالله في بعض الربوبية، ولا شك أن هذا يكفي لتحقيق ما نقرره من أن توحيد الربوبية حجة على الناس في توحيد الألوهية، وأنه مستلزم أن يوحد الإنسان ربه في ألوهيته، فكان هذا الجواب الدامغ من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَحَقِيقَةُ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ: أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ رَبًّا لأَفْعَالِ الْحَيَوَانِ وَلَا تَتَنَاوَلُهَا رُبُوبِيَّتُهُ، إِذْ كَيْفَ يَتَنَاوَلُ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ.

(الشرح)

القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة كما سيأتينا إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ ويسمونه القدرية المجوسية ويسمون القدرية النفاة، أي الذين ينفون قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويقولون: إن الإنسان يخلق فعله، وأن الله لم يخلق الأفعال، وإنما الإنسان خلق فعله، فكلام الإنسان لم يخلقه الله بزعمهم، وإنما خلقه الإنسان، وصلاته لم يخلقها وكذبه لم يخلقه الله وإنما خلقه الإنسان، والزنا لم يخلقه الله وإنما خلقه

الإنسان، فهم شابهوا وضاهوا المجوس، لأن المجوس يقولون: إن النور خلق الخير، وإن الظلمة خلقت الشر، فجعلوا خالقين، وهؤلاء المجوس جعلوا خالقين لأن كل إنسان عندهم خالق لفعله، فهم لم يثبتوا كالمجوس خالقين، بل أثبتوا خالقين بعدد الناس، ولذلك ضاهوا المجوس، ومع ذلك فهؤلاء القدرية المجوسية يقولون: إن الله خالق كل شيء إلا أفعال الإنسان، لم يشركوا في الربوبية كلها، حتى في صفة الخلق يقولون: الله خلاق كل شيء إلا فعل الإنسان، فإن الإنسان يخلق فعله.

وهذا الكلام باطل ساقط، كما بيناه في عدد من الدروس، ومنها شرح العقيدة الواسطية، الله الخالق أخبرنا فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فالإنسان له مشيئة شائها الله عَزَّ وَجَلَّ، والفعل ينسب إلى الله خلقًا وينسب إلى العبد فعلًا، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فنسب العلم إلى الإنسان فعلًا، لأنه هو الذي يفعله، وهذا معلوم، ومقصود الشيخ من إيراد هذه الجملة: بيان أن الشرك في الربوبية وقع ممن ينتسبون إلى الإسلام، شرك الربوبية مع سقوطه وكونه أخبث شرك كما سيأتينا ونبين لماذا، وقع فيه بعض من ينتسبون إلى الإسلام، ومنهم هؤلاء القدرية المجوسية نفاة القدر، ومن ذلك ما وقع فيه غلاة الصوفية الذين يعتقدون أن من يسمونهم بالأولياء لهم القدرة على الخلق وعلى الرزق وعلى التدبير، وأنهم هم الذين يدبرون ما في الكون.

ومن شركهم في الربوبية قول قائلهم:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ؟

هذا شرك في الربوبية، حيث جعلوا الدنيا وضرتها الآخرة من جود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعلوا ما لله في ربوبيته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعلوا علم الغيب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن علومه وليس كل علومه علم اللوح والقلم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قالت الجارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، ما قالت: يعلم كل شيء، وفينا نبي يعلم ما في غد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقولي هذا»، أنكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول الجارية: وفينا نبي يعلم ما في

غد، وهذا في صحيح البخاري، وهؤلاء يزعمون أنهم يحبون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينسبون إليه ما نهى عن نسبة قليل منه إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهؤلاء لا شك أنهم يشركون في الربوبية، مع ما هو معلوم من شركهم في الألوهية.

(المتن)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَشِرْكُ الْأُمَمِ كُلِّهِ نَوْعَانِ: شِرْكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَشِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ

(الشرح)

الشرك الذي وقع في الأمم كلها نوعان: شِرْكٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ بجعل العبادة لغير الله، وهذا هو الكثير الغالب في المشركين، وهذا مضاد لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَشِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وهذا كما تقدم قبل قليل الوقوع، وهذا مضاد لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، فخلق السماوات والأرض لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وهذا الشرك في الربوبية لم تقع فيه تسوية غير الله بالله، ممن وقع فيه، ولا نسبة كل الربوبية إلى غير الله إلا شذوذًا، لا يكاد يذكر، وكلا الشركين، أعني شرك الربوبية وشرك الألوهية تنقص لله عَزَّ وَجَلَّ غاية التنقص، وظلم عظيم، وأقبح الذنوب، وأكبرها، وأعظم الافتراء، وأبعد الضلال، ولذلك كان الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية لا يصلح معه عمل.

فكل عمل من مشرك حابط لنتانة الشرك وقبح الشرك لا يصلح معه عمل، وهو أقبح ذنوب الأرض كلها، فلو اجتمعت ذنوب الأرض إلا الشرك فلكان الشرك أنتن منها، لو أن الذنوب كلها اجتمعت في إنسان إلا أنه موحد لم يشرك بالله، ولو أن شخصًا لم يذنب ذنبًا جدلًا غير أنه أشرك بالله لكان المشرك أنتن وأقبح من ذاك الذي جمع الذنوب كلها، جاء في الحديث القدسي: «قال الله: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»، لو أتيتني بملء الأرض ذنوبًا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة، مع قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، انظر الذنوب كلها خلا الشرك لو

لقي الإنسان ربه بها فإن الله قد يغفرها له، أما الشرك فإن الله وهو الغفور التواب الرحيم الرحمن لا يغفره أبدًا، والحديث الذي ذكرناه كما تعلمون رواه الترمذي وصححه جماعة من العلماء ومنهم الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(المتن)

قال رحِمَهُ اللَّهُ:

فَالشَّرَكُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ: هُوَ الْغَالِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِشْرَاكِ.

(الشرح)

الشرك في الألوهية بصرف العبادة أو شيء منها لغير الله عَزَّ وَجَلَّ هو الغالب على شرك المشركين، أكثر شرك المشركين في الألوهية، ولذلك تجد أن مجادلة المشركين للرسل عليهم السلام كما أخبرنا الله عنهم إنما هي في الألوهية، إنما هي في توحيد العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا في عموم الرسل وفي خصوص نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأول شرك وقع في الأرض هو في الألوهية، وهكذا شرك الأمم بعد ذلك، وذلك اتفق جميع الرسل بأمر الله على الأمر بعبادة الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وترك ما كان يعبد من دون الله.

(المتن)

قال رحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ شِرْكُ عَبَّادُ الْأَصْنَامِ، وَعَبَّادُ الْمَلَائِكَةِ، وَعَبَّادُ الْجِنِّ، وَعَبَّادُ الْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتَ، الَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ، وَيَنَالُنَا بِسَبَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ وَكَرَامَتِهِ لَهُمْ قُرْبٌ وَكَرَامَةٌ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حُصُولِ الْكَرَامَةِ وَالزُّلْفَى لِمَنْ يُخَدِّمُ أَعْوَانُ الْمَلِكِ وَأَقَارِبِهِ وَخَاصَّتِهِ.

(الشرح)

تعددت العبادات للمشركين من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الجن، ومنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد البقر، ومنهم من عبد الفرج، ومنهم من عبد المشايخ والصالحين والأولياء، تعددت المعبودات، لكن الحظ أمرين:

الأمر الأول: أنه مهما تعددت المعبودات فالمعبود هو الشيطان، فالمسألة إما عبادة الرحمن الخالصة وإما عبادة الشيطان، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، فالمسألة إما عبادة الله الخالصة، وإما عبادة الشيطان، فمهما تعددت المعبودات فهي في الحقيقة عبادة للشيطان، لأن الذي يأمر بها ويزينها هو الشيطان.

الأمر الثاني: أنه تعددت المعبودات وتنوعت من دون الله عَزَّ وَجَلَّ عند المشركين والحجة واحدة، المعبودات متنوعة متعددة عند المشركين والحجة واحدة، ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، كما أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا سر شركهم، أنهم سووا الله بخلقه، كيف؟ هم أصلًا رأوا أن أهل الشأن والمكانة من المخلوقات من أهل الدنيا يقربون أناسًا ممن حولهم وممن يخدمونهم وممن يعرفونهم، ثم يقربون من يتقرب إلى من هو قريب منهم، معارف وأحباب القريب من ذوي الشأن في الدنيا يقربون من أجل قرب هؤلاء، وأيضًا رأوا أن أهل الشأن في الدنيا الغالب أن حاجات الناس لا تعرض عليهم إلا بواسطة من هم قريبون منهم، يعني لا يوصل إليهم وتعرض حاجات الناس عليهم إلا بواسطة من هم قريبون منهم، بل قد لا يعلمون أصلًا بهؤلاء الناس وحاجاتهم إلا عن طريق هؤلاء .

فكان من يريد أن يصل إلى أهل الشأن في الدنيا في الغالب يحتاج إلى شفعاء، يحتاج إلى من يوصله كما يقال، يحتاج من يقربه كما يقال، فسووا الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا، سووا الله الذي يسمع السر والنجوى، ويعلم كل شيء، ويحب أن يسأل، وهو القريب الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، سووه بأولئك المخلوقين، فكانوا ظالمين مفترين ضالين ضلالًا بعيدًا، أساءوا الظن بالله، حيث جعلوه كهؤلاء المخلوقين، وأساؤوا الظن بأنفسهم حيث قالوا: إن متلوثون مذنبون لا يقبل الله دعاؤنا، وقادهم ذلك إلى التسوية في الألوهية، إلى التسوية في العبادة، فعبدوا غير الله بحجة أنهم الشفعاء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله عَزَّ وَجَلَّ منزه عن ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يسمع دعاء الداعين، لا يختلط عليه صوت بصوت، ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه، فإن قال قائل: إن هناك شفاعة مثبتة نافعة، قلنا: نعم، هناك شفاعة عند الله نافعة مثبتة يتفضل بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وينعم بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الشافع والمشفوع له، هي شفاعة لإكرام الشافع، ولرحمة المشفوع له.

ولا تكون هذه الشفاعة إلا بإذن الله، ورضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تكون لمشرك أبدًا، فمن أشرك بالله بحجة الشفاعة حُرم من الشفاعة، ولا تطلب الشفاعة إلا ممن يملكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩)﴾ [طه: ١٠٩]، فالشفاعة كلها ملك لله، تطلب من الله، ويأذن بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي هذه الشفاعة تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست كشفاعة المشركين التي يقولون: إننا نتشفع بها إلى الله، فإن تلك الشفاعة فيها تنقص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم تنقص، إذًا انتبه يا عبد الله انتبه لهذه القضية: تتنوع معبودات المشركين من دون الله، ولا يزال الشيطان يلعب بالعقول حتى وجد كما قلنا من يعبد الفرج، هناك أقوام اليوم في الأرض يعبدون فرج الرجل، وهناك أقوام في الأرض اليوم يعبدون فرج المرأة، ومهما تنوعت المعبودات فانتبه لهذه القضية، لن تجد معبودًا يقينًا أمر الله بعبادته، فالله إنما أمر بعبادته وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما الذي يأمر بعبادة غير الله إنما هو الشيطان، ولذلك الذي يعبد أحدًا من دون الله ولو بأن يدعو ليس فقط ولو بأن يدعو ولو بأن يعتقد أنه مستحق أن يدعى ولو لم يدعه، لو أن إنسانًا اعتقد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستحق أن يدعى من دون الله، وأن دعاؤه من دون الله حق له، أشرك بالله، حتى لو لم يدعه.

لو دعا الولي مرة واحدة ولم يتب أشرك بالله شركًا أكبر، فهناك ممن ينتسبون إلى الإسلام من يعبد غير الله اعتقادًا أو عملًا من المشايخ والأولياء الصالحين والمقبورين نعوذ بالله من الشرك، إذًا الذي يأمر بعبادة غير الله ولو قلت هو الشيطان، ومن عبد غير الله ولو مرة عبد الشيطان.

الأمر الثاني: أن الحجة المردئة في الشرك واحدة، ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، نحن ما ندعو صاحب القبر إلا ليقربا إلى الله، يقولون: نحن عصاة متلوثون، فنتقرب بصاحب القبر إلى الله بأن ندعو صاحب القبر، فنقول: المدد يا فلان، نحن هنا نجعله شفيعًا لنا عند الله يقربنا إلى الله، هذه حجة المشركين، وهي التي أردت المشركين في هذا الشرك، إنما يردي المشركين في الشرك أمران: التعظيم وادعاء التقرب والشفاعة، أول شرك وقع في الأرض بني على التعظيم على تعظيم الصالحين، وجعلهم أولئك المشركين شفاء إلى الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهكذا ما أهلك الناس وأوقعهم في الشرك إلا تعظيم المخلوق واعتقاد أن هذا المخلوق شفيع عند الله، يقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعبدوهم من دون الله.

ولذلك إذا تكلمت مع أي مشرك من مشركي هذا الزمان تجده يقول هذا، تجده يقرر تعظيم هذا المعبود وأنه إنما يتقربون به إلى الله، تجد الآن دكاترة دكتور أستاذ دكتور يقرر هذا الشرك بهذه الطريقة وهذه الحجة، أتنكر كرامة الأولياء؟ أتنكر ولاية هؤلاء العباد لله؟ أتنكر كرامتهم؟ لا، لا ننكر كرامتهم، ولا ننكر أن لله أولياء، لكن بما صاروا أولياء؟ صاروا أولياء بالتوحيد، لولا التوحيد ما كانوا أولياء، ما علاقة كونهم أولياء بكونك تشرك بهم؟ تشرك بالله، تشركهم بالله سبحانه وتعالى وتدعوهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقول لك: لا، أنا في الحقيقة أريد الله، لكن هؤلاء طريقي، هؤلاء شفاءي، قلنا: وهل أمرك الله بهذا؟ وهل أحوجك الله إلى هذا؟ الله ما قال: وإذا سألك عبادي عني فعليهم بأصحاب القبور، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾ [البقرة: ١٨٦]، لن تؤمنوا إلا إذا فعلتم ذلك، ومن فهم هذه القضية وأن المعبودات مهما تنوعت عند المشركين فإنها عبادة للشيطان، والحجة عندهم جميعًا واحدة اندفعت عنهم شبهات الشرك، ويسلم له توحيده بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والداعي إلى التوحيد ينبغي أن يعلم هذا، ويفقه هذا حتى تكون دعوته قوية صحيحة، ولذلك ذكرت لكم مرارًا وتكرارًا أن هذا الكتاب مليء بالفوائد العلمية القوية في تقرير توحيد الألوهية، وأن من يريد أن يدعو إلى توحيد الألوهية ولا سيما حيث يكثر الشرك.

والله يا إخوة للأسف الشديد أنك تجد كثيرًا من عمار المساجد في بعض البلدان تجدهم مشركين، هم عُمار المساجد وقد يحضرون قبل الأذان، لكنهم يشركون بالله الشرك الأكبر، وهم بحاجة إلى من يدعوهم إلى التوحيد، وإذا مُكن طالب علم من إمامة المسجد ينبغي أن يكون أعظم ما يحرص عليه أن يدعوهم إلى التوحيد، لكن بحكمة وعلم وقوة حجة، لعل الله أن يكرم بأن ينقذ واحد من الشرك، لو أنقذ واحد من الشرك لفاز فوزًا عظيمًا، فكيف إذا يسر الله له أكثر من ذلك؟ وأعود وأقول: يا إخوة نحن ونحن في بيوتنا اليوم نستطيع أن ندعو إلى التوحيد، نقوي الدعوة إلى التوحيد في وسائل التواصل، إذا كان الإنسان يجيد لغة يترجم بعض مقاطع العلماء في التوحيد أو يسجل مقاطع له هو في

التوحيد وينشرها، جميل ما يفعله الآن بعض الإخوة من أنه يأتي بمقطع لعالم ثم يترجم كتابة، لكن أيضًا الترجمة الصوتية مطلوبة، لأن بعض الناس قد لا يقرأ، وذا يا إخوة من أهم ما ينبغي أن نعتني به، نتظافر ونتعاون على تقوية دعوة التوحيد في وسائل التواصل بشتى أنواعها، أقل شيء أنك تقوي المقطع بأن تدخل عليه، أن تضع عليه ما يطلب ليصبح قويًا ليقترح على الناس.

الناس بحاجة لهذا يا إخوة، وهذه نعمة سُبْحَانَ اللَّهِ ربما مقطع ما يكلفك شيئًا ربما كان ثمنه الجنة، ربما أخرجت به إنسانًا من الشرك بإذن الله فاعتقت بهذا من النار، هذا خير لك مما يكتنزه الناس، ومما يتنافس فيه أهل الدنيا، ومما أوصي به أن يفهم كلام الشيخ كما نشرحه وشرحه غيرنا من المشايخ الفضلاء، ثم ينشر في هذه الوسائل بشتى اللغات، لعل الله أن يجعل في ذلك خيرًا كثيرًا.

ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يجعلنا دعاة إلى التوحيد والسنة وإلى كل خير.

والله تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ.